من ميدان الحياة إلى ميدان الأدب، عبر المعاناة والقيم الجمالية. ونظراً للعمق التراثي، لهذا اللون من الأدب، فإن استعادته، في أدب محارب في واقعه وذاكرته، يكفل للأديب امتداداً أصيلاً إلى الماضي، دون افتعال الذاكرة، ويغني الأدب الفلسطيني بابداعات عربية عميقة الجذور. ولأنه ليس بيننا من «تنقصه حياة حتى لا يقدمها، أو ينقصه موت حتى يخاف على حياته»، كما قال الفضائي في المتشائل، فإن الأدب الساخر، في اعتماده الكاريكاتير النثري، يستطيع أن يزلزل قوة القمع، وأن يكشف عنها هالة الجبروت، ويظهرها، من داخلها، كغربال من الثقوب والاهتراء، مما يفتح المجال مجدداً أمام نهوض الواقع النقيض والأدب النقيض.

إذن، فسلمان ناطور، ليس ابن يومه، إنه ابن شعبه، وابن هذا الأدب العظيم، الذي يزداد رسوخاً وتوطداً. فكيف قدم لنا، قصصه الجديدة «الشجرة التي تمتد جذورها إلى صدري»؟

أدب أفكار

يفتتح سلمان ناطور مجموعته بقصة «الخلاص من خمس حالات عاطفية». قصة فكرية، مقسمة إلى خمس حالات، تنتقل من «لقد علمني غيري أن أكشف عن هويتي بعد أن ادفن رأسي في الرمل»، مروراً بـ «لقد أدركت الآن أن ما انكره في نفسي هـــو ما يثبته غيري في هذه النفس»، إلى «انتفضت وطهرت نفسي فتبين لي أن جذورها تمتد إلى صدري» (ص ٢٤ و٢٥ و٢٨).

وبخلو القصة من الحدث أو الشخصية، تقول الأنا قولها دون تكوين، وبطريقة مباشرة، فتفقد القصة سمات القصة وتتحول إلى خاطرة ذهنية. أي أن سلمان ناطور، وهو يقول قوله، وينقل تجربته إلى ميدان الأدب، لفظ المعاناة الجمالية، وسقط في الاعتراف الصحفي، رغم قوة الفكرة العظيمة التي يعكسها وجوهريتها، «القوة فينا نحن وليست خارجنا»، وكان، بالامكان، أن تصبح القصة نموذجاً لجانب هام من وظيفة الأدب الساخر، لولا سقوطها في الذهنية. فخلف الضعف الظاهر في الشعب، قوة كامنة عظيمة، وخلف الجبروت الظاهر في السلطة، اهتراء وخواء لا حدود لهما. ولحظة الادراك العظيم، عندما يصل الشعب، عبر ضعفه الظاهر، إلى قوته الكامنة، ويستخدمها. هذا هو جوهر الوظيفة الكفاحية لهذا الأدب، وهكذا اضاع سلمان ناطور، عليه وعلينا، هذا التكوين، الذي استعجل القول فيه، وقدمه بمادته الخام، دون اعتناء أو خلق.

ورغم التماثل في الاهتمام، بين سلمان ناطور وزكي الصلة (كاتب فلسطيني من قطاع غزة)، فإن هذا الأخير في مجموعته: «العطش» (القدس: دار الكاتب، أيار ــ مايو ١٩٧٨)، يبدي عناية فائقة بوحدة الموضوع، ويهمل وحدة الشكل والزمان والمكان، ويعتمد تشكيله البانورامي على المزج بين القص والخاطرة والتعليق، ومع ذلك قدم «خماسية الوهج» القريبة المحتوى من «خمس حالات»، بلوحات قصيرة، شديدة الشاعرية، استنجد خلالها بالطبيعة والطيور والماضي والحاضر، ليرصف كلمة شجاعة في وجه الاحتلال.

ولكن سلمان ناطور، يواصل تمسكه بأدب الأفكار، وهذه المرة معتمداً على الايحاء، في قصة «بشير مسلم الجبعي»، الذي سموه «بشيراً لأنه بشرّ بقدرة الوالدة على الحبل بعد أن قطعت الأمل» (ص ٥٧).

وفي قصة «مقدمات في سيرة اعرابي»، الثلاثية التكوين، يمزج بين الأفكار والشخصيات، ولكن ملامح الشخصيات لا تثبتها أفعالها أو أقوالها، وإنما يثبتها التعليق الخارجي. وتعود القصة إلى زمن الانتداب البريطاني، حيث كان هنالك ثلاثة مخاتير في قرية «دالية»: «الأول عينه أهل القرية، والثاني عينه الانكليز، والثالث عين نفسه بنفسه» (ص ٣٦). والمختار الثالث، كان يزور الخواجه شلومو، أكثر من ثلاث مرات في الاسبوع، فيما الضابط الانكليزي يشرب القهوة في بيت الخواجه شلومو، مندوب الوكالة، في بيته الجديد على أرض «الشلالة». وأمامهم، وفي بيت المختار المختار الثالث، صرخ الاعرابي الحكيم:

– بعتوها.. بعتوها بمسحة ذقن يا اولاد الـ...

لقد نجح سلمان ناطور في رسم التكوين السياسي لتلك الحقبة، عبر تحالف الضابط الانكليزي